زنبقة الغور

رواية اجتماعية متتابعة

بقلم

— ملخص ما نشر سابقاً —

فرت ساره من بيت ابيها الجمّال في مدينة جنين لحادث اصابها ولضغط زوجة ابيها عليها وظلمها . فاقامت في قرية في مرج ابن عامر لتستر عارها ريثما يتقضي امرها . فولدت طفلاً ميتا ثم رحلت تقصد ابن بلدها المعلم الياس بلان في قرية صفوريه فعلمت انهُ غادرها وترهب في الناصرة فقصدته في ديره طالبة مساعدته فوضعها في الدير تخدم . ثم استهواها فاستسلمت اليهِ . وفرّ بها من الدير الى قرية كفر كنا وقد وعدها ان يتزوجها ولكنه تركها هنالك غادراً بها وهرب الى لبنان . فوضعت ساره بنتاً وجاءت بها الناصرة فنبذتها عند باب دير الايتام . وراحت تفتش عن خادعها في لبنان وسوريا فلم تجده فعادة بعد سنين طويلة الى الناصرة فراها القس جبرائيل مبارك في باب ديره فارتعش وعرف بها الفتاة التي اغواها في صباه يوم كان ابوها جماداً يخدم اباه في جنين . فكتمها نفسه وورق لها فادخلها الدير لتخدم فيه . وهنالك تعرفت بفتاة تدعى مريم تخدم في دير الايتام فحنت لها جوارحها . وبينما ساره نائمة اثناء رعيها المواشي لدغتها حية واشرفت على الموت . فاستدعت القس جبرائيل واعترفت له وتوسلت اليه ان يستدعي مريم لتودعها واوصته ان يسأل عن اصلها و يعتني بها فوعدها القس خيراً وكشف لها نفسه مستغفراً عما جناه عليها في صباها . ووضع القس مريم تحت عنايته حسب وصية ساره فسالها عن حياتها في الدير فشكت اليهِ ما تقاسيه هنالك من الضغط . فرق لها وذهب الى دير الايتام فحاير الرئيسة بشأنها وخرج حانقاً مستاءً مما شاهده من فساد ملاجئ الايتام . ولكن مريم لم تستطع احتمال حالتها فهربت من الدير في اليوم التالي ولجأت الى القس جبرائيل فادخلها تخدم في بيت اخيهِ الوجيه يوسف افندي وزوجته الست هند

فاعجب بها اسيادها لما ادخلت عَلَى البيت من الترتيب ولم يتمالك سيدها ان يفاخر بها ضيوفه في مأدبة انيقة أقيمت في بيته كانت لمريم اليد الطولى في تنظيمها

*****

« تابع ما قبله »

فوضع القدح يوسف افندي من يده وقال ضاحكاً

— عندئذٍ يا محترم تقفل كل الاديرة

فهتف المطران قائلاً : احسنت احسنت . دير بلا خمر لا يكون ورئيس بلا كرش ينافي كل معقول ومنقول

— سيادتك ناقم عَلَى الرهبان

— لان خمرهم في هذه الايام عاطل ومعدهم فاسدة

فقال يوسف افندي . ليت المعد وحدها فاسدة . ها ها ها قدمي السمك الى الرئيس يا مريم . يقول الاطباء ان السمك اسهل المآكل هضماً واكثرها غذاء . وهذه السمكات كانت صباح اليوم في البحيرة تسبح الله . اعطف عَلَى « السبعلية » امامك يا سعادة القائمقام فقد حرّم النبي الخمر ولم يحرم النبيذ . عصير العنب كعصير التفاح او الرمان

— صحيح . وقد ادرك ذلك اسلافنا الاموريون

— واسيادنا الاتراك يحذون حذوهم

— رجل في الجامع واخرى في الحانة . هذه روح العصر أليس ذلك يا سعادة البك

— نعم يا ست هند . ومن رأيي ان قليلاً من الخمر يفيد الاسلام

ينهض بالمسلمين من خمرلهم ·

فقال رب البيت وقد أفرغ كأسه وملأها للمرة الثالثة او الرابعة ·

والكثير منه ينصرهم عَلَى اعدائهم · الحماسة سر النجاح والخمرة تضرم في النفس نار الحماسة · للخمرة وحدها فضل عَلَى الاوروبيين عظيم — الخمرة ام الحرية —

فقال المطران يغير الحديث · هذه الحجال « المطرزة » من افخر وألذ ما طبخ · فاجابه يوسف افندي وهو يحدج مريم بعينه الجاحظة

— في « التطريز » يا سيدنا لذة غريبة

فقال سيادته يغير الحديث ثانية · وكيف حال عارف

— لم يزل « يطرز » في بيروت

فابتسم المطران وامعن القائمقام في الضحك اما رئيس الدير فلم يسمع النكتة لانه كان يحدث الست هند بصوت خافت في موضوع ظهر من اصغائها اليه انه يهمها جداً ·

— وهل اتم عارف دروسه

— تممها قبل ان يدخل المدرسة · الغلام يا سيدنا سر ابيه · وهو قريباً يعود الينا غانماً ظافراً ان شاء الله · يا ظريفة هاتي الشمبانيا

فسارعت الخادمة الى الدلو في الصهريج تلبي الطلب · وكان يوسف افندي قد اخترع طريقة لتبريد الشمبانيا تقوم مقام الثلج اذا نفد · وفي الناصرة كما في باريس ولندرا قطعة الثلج تعد من الاعلاق · فاستغنى يوسف

افندي عنها بخبل ودلو وصهريج

— لا انكر ان هذه العروس اجمل عَلَى المائدة اذا تسربلت بالثلج والفضة فلا يبدو منها غير فمها الذهبي · ولكننا في الناصرة يا سادة · وسرابيل العروس تعيق في مثل هذه الساعة ·

ثم فتح يوسف افندي القنينة بلياقة نادرة كأنه خدم عشرين سنة في نزل باريسي شهير · فطارت الفلينة وسقطت عَلَى رأس المطران · فضحكت الست هند وقالت · ستربح الليلة يا سيدنا

— لا يربح من يلعب معك يا ست هند

فقال القائمقام · ولكن حضرة الرئيس يدحض قول سيادتكم · فهو دائماً من الرابحين ·

فنظرت الست هند الى الراهب كأنها تتلو عليه بلحظها بيتاً من الشعر

فقال يوسف افندي · كل ربح عَلَى طاولة القمار خساره · اما الربح الحقيقي · الربح الحقيقي — عندك سيدنا — الربح الحقيقي في البر — والتقوى وال—

وكانت مريم تقدم اذ ذاك الشمر فاوقفها قربه يتمثل بالاختيار فأخذ خوخة واحدة بيده واخرى من خدها بنظره · وهو يقابل في نفسه بين لون شفتيها ولون الشمر · والست هند تراقبه سراً · وتظهر لرئيس الدير انها صاغية لحديثه ·

— ما اجمل لون هذه الشمرة · بالله يا هند ان تروي لنا بيتاً من الشعر

فيه ذكر خوخ المحدود ·

فقالت الست هند عَلَى الفور وهي تنقر الطاولة باناملها ·« الا خدد الله ورد المحدود » وسكتت ·

فهتف زوجها قائلاً دون ان يدرك معنى الشاعر

احسنتِ احسنتِ ! ولكن الخوخ احسن · وبالاخص اذا كان لونه كلون الورد ·

وقال المطران · الشاعر يا ست هند يدعو عَلَى كل ما تشتهيه نفسه ولاتناله فاجابته عَلَى الفور · عسى ان تنال نفسك كل ما تشتهيه فتدعو للناس ولا تدعو عليهم — تفضلوا

ونهضت فنهض الكل وخرجوا الى فناء الدار · فراح يوسف افندي يحلج بين القائمقام والمطران ويمازحهما ضاحكاً · والراهب وزوجته يتخافتان ويتهامسان ·

— اشاعات · اشاعات ·

— ولكن القرائن تدل عَلَى صحتها · فقد احب القس جبرائيل ام الفتاة حباً شديداً عجيباً شاع امره في الدير وفي البلد · وقد وصته عند موتها بابنتها مريم — مريم من الاسرة المباركة يا ست هند

— هس · لا تفضحنا · متى يصدر امر الرئيس العام بنقله الى لبنان ؟

— لا ادري · في امكانك انت ان تعجلي ذلك

ثم وقف عند الباب يستعطفها ويضغط عَلَى يدها

— لا · لا · لا تجيء غداً ولا بعد غد · الاثنين القادم بعد القداس ·

فتبع الرئيس الست هنداً وهو يفرك يديه مستبشراً مطمئناً

— ها ها ها ! هذا يا سيدنا من اغرب ما سمعت · ولكن هنداً لا تصدق هذه الاخبار لانها محبة ومخلصة لزوجها · وهي تظن كل النساء مثلها

فسمعت زوجه الجملة الاخيرة فقالت ضاحكة — مثلي انا ؟ لا سمح الله·

وجاءت اذ ذاك مريم بصينية من الفضة كبيرة في وسطها فنينتان من المشروب الافرنجي · الواحد اخضر اللون والثاني ذهبي تحيط بهما اقداح صغيرة دقيقة مستطيلة شبيهة بزهر الزنبق · والى جنب كل قدح فنجان من القهوة في ظرف فضي مخرّم جميل · فمشت الست هند مع الخادمة تسكب لكل ضيف اختياره ·

— أمشروب النعنع سيدنا ام « البندكتين »

— لا احب ما يصنعه الرهبان في هذه الايام

فملأت قدحاً من السيال الاخضر وقدمته اليه · فتناوله منها باليمنى واخذ يدها بيسراه فقبلها قائلاً · يد الكريمات احرى بالتقبيل من ايدينا·

فقالت الست هند ضاحكة · قبلّتك تجلب السعد · ساخسرك الليلة فلسك الاخير — وانت يا محترم · أمشروب الرهبان تريد ؟

— لا يا ست هند · من نطمك عَلَى خدك الايمن ·· ونحن نقتفي اثر سيادته مهما بالغ بالتقريع

فاجابته عَلَى الفور

.. خباثة منك هذه . انت تحب النعنع وتكره « البندكتين »

— براڤو براڤو

— وانت يا سعادة القائمقام

— اعفيني من الاخضر والاصفر واسمحي لي بفنجان من القهوة . ثم سكبت لنفسها كأساً ورفعته قائلة — وانا اشرب « البندكتين » — استميح من سيادتكم عذراً — لانني احب الرهبان

فقال المطران . ونحن نحب ما تحبين يا ست هند

— سبق السيف العذل

جاءت عندئذٍ ظريفه بالاراكيل فوضعتها باشارة من سيدتها في الغرفة المجاورة لردهة الاستقبال اي غرفة القمار . وبعد ان شرب السادة القهوة امتثلوا امرها ودخلوا يلبون دعوة « البوكر » فجلس رئيس الدير الى يمين الست هند والقائمقام الى شمالها والمطران امامها . فعدت الحجارة وأعطت منها بمائتي غرش الى كل من الجلوس وافتتحت الجلسة بغاية الرصانة والخشوع كأنها تفتتح بالصلاة اجتماع « اخوات مريم » في الكنيسة .

وظل يوسف افندي في الدار يدخن باركيلته الى ان سقط النرجيش من يده فاستلقى عَلَى الديوان متخدراً من الخمر

اما الخادمات فبعد ان تناولنَ عشاءهنَّ وتممنَ شغلهنَّ اجتمعنَ في غرفة قرب المطبخ وكانت مريم قد اشعلت فيها سراجاً وافتحنَ جلستهنَّ ومن اسرار نشأة مريم التي لا ندركها تعلمهـا لعب « البوكر » فهلَّ

تعلمت يا ترى من مجرد ترددها الى صاغة اللعب فاختلست مثالها وهي تدور على الجلوس بالقهوة والمشروب ؟ ام هل علمها سيدها ؟ لا نعلم ولكننا نؤكد انها علمت رفيقاتها تلك اللعبة وكن يجتمعن سراً فيجلسن على الحصير وتترأس مريم جلسة « البلف » برصانة تفوق رصانة سيدتها « بالفة » المأمورين والرهابين · وكانت تستخدم الفول بدل شظى العاج الرسمية· فتعد لكل من رفيقاتها بمقدار عشرة غروش وتضع المال تحت الوسادة وتوزع الورق قائلة · الفتحة بخمس فولات · ومحدودة

— ثلاث فولات

— فوقك خمس فولات

— جئت

— وانا جئت · ورقك

— جوزان بالاس

— ثلاث صبيان

— ثلاث بنات

— وليكن معلوماً من تأكل فولاتها تخسر فلوسها ،

. . . . . .

— اضبط لعبك يا سيدنا — كم ورقة اخذت

— اثنتين

— طيب · وفوقك مجيدي

— وفوقك مجيديان

— وثلاث مجيديات

— وهذه الليرة

— لست ممن يهربون · ورقك

فاظهر المطران ورقه ضاحكاً

فقالت الست هند · غيّر « بلفتك » صرنا نعرفها · ورمت ثلاثة صبيان على الطاولة وخلطت الورق وما تبقى بيدها

— آمري لنا بالقهوة اذن

فصفقت الست هند ثم صفقت فلم يلبها احد · فصاحت · يا مريم يا ظريفه يا لطيفه · يقطع عمر الخدم !

ونهضت غضبة ناقمة فجاءت المطبخ فلقته خالياً فسارت الى الغرفة المجاورة له فرأت فيها نوراً فوقفت في الباب تسترق السمع فاذا بمريم تقول هذا آخر دور اجعلوا الدخول نصف بشلك عشر فولات · ففتحت الباب وصاحت بهن صيحة القت الرعبة في قلوبهن · ولكن مريم تشجعت فقالت فقالت تدافع عن نفسها ورفيقاتها

انتِ يا سيدتي قلتِ لي ان اقتدي بالاكبر مني · ولقد سمعتك مراراً ترددين هذا البيت

وتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم أن التشبه —

— يقطع الله عمرك ! سدي فمك ! وقحة · ثرثارة · واخذتها باذنها

وصفعتها عَلَى خديها وقذالها · وراحت تلعن الساعة التي دخلت فيها هذه الفتاة البيت · ومرّت في الدار فسمعت زوجها يغط فايقظته بعنف قائلة · قم غط في غرفتك ·

فاستفاق يوسف افندي من حلم جميل ونهض عن الديوان وخرج الى السطح يستنشق الهواء · وبين هو واقف هناك مرّت مريم في طريقها الى المطبخ فاوقفها سيدها بيده وحدق نظره بها دون ان يكلمها ثم جذبها اليه وطفق يقبلها ·

وقضت مريم تلك الليلة تبكي وتفكر بالقس جبرائيل الذي لم يزرها منذ شهرين ·

الفصل الخامس

اما القس جبرائيل فقد كان في هذه المدة بسوريا يتفقد شؤون الرهبان هناك ، ويبحث عن دير يقيم فيه قبل ان يصدر الرئيس العام امره بنقله الى لبنان · والقس جبرائيل لا يعطي الباغي مراده فيه · سئم الاقامة بالناصرة بين اخوان اعتزلوا الله لا العالم يتنازعون السيادة ويتألبون بعضهم عَلَى بعض ، سلاحهم النميمة ، والحسد حشو ثيابهم ، فوطن النفس عَلَى هجر ديرهم · فقد اشاعوا عنه الاشاعات الكاذبة فسمعها تُردد حوله ولم يفه اباءً بكلمة حق او كلمة باطل · ودسوا الدسائس ساعين به واشين فلم يحرك ساكناً عليهم · ورموه بالفحشاء فلم يحفل بهم · وقد طالما قال في نفسه · الكبير

فيهم لا يكبر على بغير ذنوبه وماثمه · البعد اولى واجمل

ولكن الحالة في سوريا ليست احسن مما هي في فلسطين · فبين هو هناك بدت له امور كادت تزعزع ايمانه · واجتمع في احد انيرة لبنان بالقس بولص عمون فاستطلعه اخبار اخوانه فقال

— حالتنا يرثى لها ، فقد امسى الدير ملطأ للمعاثر ، وعشاً للمفاسد وسوقاً للمكسب والارتزاق · فلا طريقة اليوم لمن يريد الانقطاع عن العالم غير طريقة النسك — النسك في البرية ولعمري ان النوتي خير من راهب هذا الزمان ·

— والانضمام الى البحرية خير الترهب لا شك · ألطف اللهم بنا

وامعن الراهبان في الحديث وكل منهما مسترسل الى الاخر مسرور بالاستزادة ·

— ولا اظنكم تنوون البقاء هنا ·

— كلا ثم كلا · ساسافر عما قريب الى القاهرة لادرس اللغة العربية في احدى المدارس هناك ·

— وهل حضرتكم من اسرة عمون اللبنانية

— لا · انا من فلسطين

— من أية ناحية ؟

— من السامرية

فاطرق القس جبرائيل مفكراً وبدا في وجه القس بولص شيء من

الاضطراب كان ندم على ما قال · فقام من ساعته يعتذر الى الزائر متعللاً بالصلاة ·

وبعد ايام عاد القس جبرائيل الى الناصرة وهو حائر في امر الراهب الذي جمعته به التقادير · فخاطب نفسه مراراً يقول — بيت عمون من السامرية · مستحيل · مستحيل · لا اذكر ان في السامرية احداً يدعى عمون · ولم لم اسأله عن ايلياس البلان يا ترى · ايلياس البلان · خطر في بالي ان اسأله فنسيت الاسم · ولا بد ان اجتمع به ثانية · غريب · غريب ·

وما كاد يصل الى الناصرة حتى أخذت تتراجع في اذنه صدى الوشايات والدسائس وقد تضاعفت في غيابه وازدادت خبثاً وشراً · فصرفت باله عن تلك الصدقة وكادت تنسيه اياها · وفي اليوم الثاني جاء يزور اخاه ويتفقد حالَ مريم ·

سنة وبضعة اشهر ولت ومريم تخدم في بيت مبارك فتزداد نفوراً رغماً عما كانت تقاسيه · كرهت سيدتها وقرفت سيدها وهمت مرة بالفرار تخلصاً من توحش الاثنين ولكنها تمالكت نفسها قائلة

—الاحسن ان انتظر الى ان يرجع القس جبرائيل · وكانت مريم تزداد تعلقاً بالراهب حين تشاهده فتود ان يظل قربها ليحميها من تصوراتها واوهامها · تحبه وتحترمه وتخشاه · اذا حضر تقف قدامه كالنعجة بين يدي الراعي · واذا غاب تشيعه بدموعها وتتبعه بافكارها · وكانت تشعر احياناً انها كالعصفور قدام الافعى · ومع ذلك لم تكن توده بعيداً عنها وشد ما كان

فرحها لما رأته قادماً اليها بعد غياب شهرين · قبلت يده ضاحكة فاحس القس جبرائيل بدمعة سقطت على زنده · بكت فرحاً وبكت حزناً · شكت اليه امرها فطيب خاطرها ووعدها خيراً ·

— قريباً انقل الى لبنان يا بنتي فآخذك معي ليطمئن بالك ·

— لا تطيل غيابك هذه المرة · دخيلك · احب ان اراك كل يوم

— سازورك مرة كل اسبوع او مرتين ان استطعت

— ألا يؤذن لي ان ازورك في الدير ؟

— لا لا · اياكِ ان تفعلي ذلك · ابقِ في شغلك الى ان يجيء يوم السفر فتسافرين معي

ولكن سيطول امر تلك الهجرة وقد يزول لان القس جبرائيل ادرك بعد ايام ان يد امرأة « مباركة » تشتغل في اهلاكه ·

— من بيت ابي ضربت · امرأة اخي تسعى لتقلي · تناصر الرئيس وزمرته علي · لا بأس · لا بأس · ولكن مصرع الباغي ذميم · سيسافر الرئيس الى لبنان وسيبقى القس جبرائيل مبارك في هذا الدير · ورجله على رأس الحية الرقطاء ·

وهذه اول مرة سادت احقاد القس جبرائيل على حلمه · فظل في الدير يدير شؤونه بيد من حديد وعين لا تنام · وكان يزور بيت اخيه كل اسبوع ليتفقد شؤون مريم بالرغم عما كان يقاسيه من اشياء في نظرات تلك الفتاة وكلماتها حارقيها لبه ·

وفي ذات ليلة بعد ان ارفضت جلسة « القمار » في بيت مبارك وانصرف المقامرون اظهر يوسف افندي لزوجته اشمئزازه من تصرف رئيس الدير وحديثه

— يا هند ، هذا القسيس خبيث منافق . فاذا كنتِ تحبين زوجك وتحترمينه لا تقبلي في بيتك من ينم على سلفك ويدس له الدسائس . وسلفك مثال الفضل والتقوى .

فسكتت زوجته هنيهة ثم قالت وهي تشهر الحرب عليه

— وهذه الخادمة مريم شيبت رأسي . لم ارَ بزماني فتاة عنيدة ، عتية ، وقحة مثلها . وماذا بينها وبين اخيك القسيس ؟ ألا ترى كيف يختلي بها كلما جاء يزورنا . وكيف ينور وجهها وتلعب عيناها حينما تراه . يوسف . اخوك لا يليق ان يكون في الدير وبالقرب منا . هتك حرمة بيتنا . فضحنا .

— وانتِ ايضاً من اعدائه . انتِ تناصرين الرهبان عليه . انتِ تصدقين

— ان مريم ابنته — نعم . وخير له ولنا ان يأخذ الفتاة ويسافر اياها الى حيث لا يعرفه احد . ان يبعد — يبعد عنا .

— هند ، من كان بيته من زجاج —

— لا يراشق بالحجارة ، يا يوسف .

فاستشاط يوسف افندي غيظاً ووثب اليها رافعاً يده ولكنه تمالك نفسه والتزم السكوت .

وبعد ايام دخلت مريم على سيدها صباحاً تحمل اليه حسب العادة الاركيلة والقهوة وكانت وقتئذٍ سيدتها في الكنيسة فوقفت امامه والحرد

يلوح في عينيها ·

— في وجهك خبر يا مريم ·

— لا تؤاخذني سيدي ، احب ان اترك البيت

— ولماذا ؟

— انت تعلم ·

— هل تخافين مني ؟ واخذ بيدها وادناها منه ثم ضمها بلطف الى صدره وجعل يقبلها ويطيب نفسها · فتفلتت منه وهي تقول لا لا · احب ان اترك البيت اليوم ·

— ولماذا · ألا تخبريني ؟

— في كل السنين التي قضيتها في الدير لم تضربني الراهبات الا مرتين · والست هند تضربني دائماً كل يوم · صباح مساء · لاقل الاسباب وبدون سبب · الست هند تكرهني ودائماً تلعن ابي وامي · وانا اكرهها ولا احب ان اخدمها ·

— طيب · لا تخدميها · ابقي في البيت ولا تخدميها · وانا — انا — فاحتدمت اذ ذاك شعلة الغرام في جوارحه كلها — انتِ خادمتي انا ، انتِ مرمورتي ·

وطوقها بذراعيه وقيدها بعينيه فتبرمت وتأففت وطفقت تبكي وهي تحاول ان تتفلت منه · فوقعت عَلَى الديوان فنهض بها يسكن روعها ويقول

— لا تخافي ، فلا اضرك ابداً امسحي دموعك · كوني مطمئنة البالْ ·

غداً اسافر الى حيفا لقضاء بعض الاشغال فتسافرين معي تتفرجين عَلَى المدينة

فخرجت مريم من غرفة سيدها واوداجها تنتفخ وصدعاها ينبضان كالساعة الدقاقة ·

وفي ذلك اليوم جاء القس جبرائيل فتضرعت اليه ان ينقلها من بيت اخيه

— ولاي سبب ·

— لا احب ان اخدم هنا · احب ان اسافر · الى سوريا · الى مصر · الى اي مكان كان لا فرق عندي بشرط ان —

— ولاي سبب ؟ هل حدث حادث ؟ هل اهانك احد ؟ هل ضربتك سيدتك ؟

— لا لا · معلمتي لطيفة ليس مثلها بين النسآء · ومعلمي من افضل الرجال · ولكني لا احب ان اخدم في هذا البيت ·

فاضطرب القس جبرائيل مما تخفيه مريم · ولقد طالما سمع شكواها ولم ينسب ما تبدوه من القلق والضجر الى غير الطفيف من الاسباب · اما الان فبدأت تتجلى له الحقيقة في المسئولية التي اتخذها عَلَى عاتقه · ألح عليها ان تجهر بما تخفيه فتلجلجت وبكت ·

— اخدم في الدير عندكم

— ولكنك تكرهين الاديرة · وانتِ الان في بيت اماجد يحبك آله ويودونك · واذا انتهرك سيدك فانما يريد صلاحك · ومع ذلك فقد قلت لكِ انني انوي ان انقل الى لبنان فاستصحبك ان شاء الله

— لا لا · احب ان اترك اليوم · فجهمها القسيس قائلا ·

— هذا مستحيل يا مريم · ستبقين هنا الى ان انظر في امرك · خرجت من الدير تحت رعايتي · فلا اعمل الا ما يعود عليك بالخير

— وهل تنقلني من هنا

— اذا عملت باشارتي ·

— انا مطيعة لك رهينة اشارتك · لا تنسي · دخيلك · دخيلك · واخذت يده فقبلتها فاعترت الراهب هزة ورّدت وجنتيه خجلاً وبين هو خارج التقى باخيه في الباب عائداً من المحكمة ·

— ارجع تعشّ معنا

— لا · لا · غير ممكن

— وماذا جرى —

— كلهم جبناء اخساء اذا حضرت يعفرون وجوههم امامي واذا غبت يسعون بي وينمون عليّ ·

— والرئيس العام غيّر سياسته · فينبغي لك ان تظل في الدير الى ان يتم لنا النصر ·

— لا اتراك الدير مأموراً مهما جرى — داروا مريم داروها من شأني

فقال يوسف افندي واضعاً يده عَلَى كتف اخيه ومحدقاً به نظره — طمئني · أرح بالي · انت تعلم انني كذّبت كل ما سمعت

— لا احد غير الله يعرف ما في قلبي · ولا ابرىء نفسي امام بشر غيرك ·

لانني احبك واعتبرك واعزك — اقسم بالله وجروحات المسيح ! —

— كفى كفى · صدقتك

— يوسف — انت الوحيد — الوحيد في هذه الديار — لا يصدقني احد غيرك ·

فعانق اخوه وقد اغرورقت عيناه وراح القس جبرائيل وهو يوصيه بمريم

ومضت عَلَى هذه الحال ستة اشهر ومريم تنتظر قرب خلاصها · والحرب بين القس جبرائيل والرهبان يتراوح امره بين المناوشات والهدن · الا انه لم ينته كما شاء الاخوان الراهب والقاضي ولا كما يشاء الله

ففي صيف تلك السنة عاد عارف من المدرسة ببيروت فهامَ بمريم لاول نظرة وكان نصيرها الثاني في البيت عَلَى سيدتها · فازداد الحال ارتباكاً واضطراباً ·

— انتِ يا امي لا تطيقي الخادمات البارعات الذكيات · وكل مرة تتوفق الى خادمة مثل مريم تطردينها من البيت

— وانت مثل ابيك ومثل عمك « المفقوع » لتخدمكم هذه الملعونة الوالدين —

وخرجت الست هند من الدار تحتدم غيظاً ·

وقد اخطأت في وصف ابنها · لان عارفاً وقد علق الفتاة عاملها عَلَى طريقته الخصوصية لا مثل ابيه ولا مثل عمه · ولا هي احست بشيء من القرف الذي كان يعتريها من قبلات ابيه ولا بشيء من الجزع الذي يصيبها

من وجود عمه قربها · بل شعرت مريم بروح ترف في البيت جديدة نفحاتها تنعش النفس وتهيج المواطف · قلنا انها شعرت بذلك · فاضلتها حواسها : لان الخيال في نفس الشاب او الصبية يتحوّل بلحظة عين الى حقيقة تلمس وتقاس · فكانت اذا جاءت الى عارف بشيء تقف امامه غاضة الطرف محنية الرأس · واذا حانت منها التفاتة ترسل عينيها عَلَى غير علم منها نظرة من نظراتها النواعم النوافذ فيختلج فؤادها لابتسامة منه ويخب الدم في عروقها مستبقاً الى خديها ·

وفي ذات ليلة من ليالي الصيف الحارة بعد ان اطفئت الانوار في البيت وساد السكون نهض عارف من سريره يتلمس الى غرفة مريم طريقه · وكانت الفتاة تنام وحدها في حجرة صغيرة تفتح عَلَى سطح ضيق صُفت عَلَى حافتيه دفعاً للحوادث صناديق من الخشب واتنك واواني من الفخار وقد زرع فيها الرياحين والازهار من حبق ومنثور وفل وياسمين · وكانت الليلة مظلمة فاتصل عارف الى جنب الحائط فوجد الباب مفتوحاً فدخل آمناً ولم يكد يخطو خطوتين حتى تعثرت رجلاه برجلي الفتاة النائمة عَلَى الارض قرب الباب · فركع الى جنبها ومرّ يده عَلَى وجهها وهو يهمس اسمه في اذنها : سمعها تصعد الزفرات · سرت اليه حرارة جسمها · هبّ هواء الليل ففاحت في الغرفة روائح الفل والحبق والياسمين فاسكرته وسكنته معاً · لبث قربها هنيهة يستنشق من شعرها وفي بيتها مزيجاً من هواء البحر وشذاء الياسمين وعاد الى سريره ساكن الجأش هادىء البال ·

وظلَّ على عادته هذه يزورها ليلاً ويعللها نهاراً بالوعود التي يزخرفها الشباب والغرام · فراحت الفتاة تمثل لنفسها بيتاً في بيروت تكون فيه سيدة لا خادمة ·

ولكن كأس الحب لا تصفو لبشر فكيف بكأس الشهوات ؟ وقد شاهد عارف اباه مرة يقبل مريم فوقف مبهوتاً يكذب ناظريه · ثم سأل مريم سوءالاً اجابته عليه دموعها ففلت مراجل الغيرة في صدره

وفي ذات ليلة وهو يتلمس سبيله الى حجرتها التقى بوالده على السطح فجمد الدم في عروقه واحتدم النار في عينيه ·

فابتدره ابوه قائلاً — ما اشد هذه الليلة لم استطع النوم داخل البيت·

فسكت عارف وانثنى راجعاً فتعثر باناءٍ من اواني الفخار فأنذه بيده وزماه تحت السطح وهو يقول في نفسه — سألحقه به اذا لقيته ليلة ثانية هنا

ومرَّ على ذا الحادث اسبوعان والابن ينظر الى ابيه شذراً والاب لايكلم ابنه الا تكلفاً · وكان عارف ومريم قد عزما ان يسافرا سراً الى بيروت

وفي هذا الاوان جاء الناصرة احد اقاربهم ايوب مبارك ليراقب حصاد ارزاق له في المرج فاقام عندهم بضعة ايام او بالحري بضع ليالٍ لانه كان ينزل باكراً الى المرج ولا يعود حتى المساء · فظنَّ يوسف افندي ان وجود ايوب عندهم يردع عارف عن غيه ونهض ذات ليلة يغتنم تلك الفرصة الثمينة · وما كاد يصل الى السطح حتى رأى عارفاً خارجاً من غرفة مريم فصاح به قائلاً —

يا لعين · اتضطرني ان اراقبك حتى في الليل ؟ ألا تنجو خادمة من شرك؟ الى متى هذا التهتك ؟ الى متى هذا الجنون ؟

فسمعت مريم صوت سيدها ووقفت واجفة عند الباب تسترق السمع وظلّ عارف مكانه ثابت الجأش هنيهة ثم قال متهكماً وهو يشير بيده الى غرفة مريم — تفضل · تفضل ·

وخطا خطوة نحو ابيه وهو يصر اسنانه غيظاً ·

— ستندم يا كلب عَلَى فعلاتك

— سمّع اذنك يا ابي سمّع اذنك

ووثب الى ابيه يهوّل بيديه فصفعه ابوه صفعة اصطدم منها بالحائط فلطمت مريم داخل الغرفة وجهها ولم تجسر ان تخرج الى السطح ·

وراح عارف يسب اباه وينذره بالويل · وأخرج من صندوقه تلك الليلة الخنجر الذي كان يحمله في بيروت ·

وفي اليوم الثاني أطلع أمه عَلَى ما جرى فاعطت مريم اجرتها وطردتها من البيت · واسرع يوسف افندي الى الدير فاوعز الى القس جبرائيل اخيه ان ينقل الفتاة من بيته حالاً · فاستمهله لذلك يوماً واحداً ·

ولكن الاقدار لا تمهل البشر ولا تحفل بتدابيرهم · رزمت مريم ثيابها وصرّت اجرتها في منديل وارته في صدرها · وعوّلت عَلَى الرحيل صباح الغد الى حيفا عملاً باشارة عارف الذي اوصاها ان تنتظره في نزل هناك فيوافيها بعد يومين ويسافر واياها الى بيروت

ولسوء حظها وحظ عارف وحظ آل مبارك اجمعين ان ضيفهم ايوب حال تلك الليلة دون ذا التدبير · وايوب مثل نسيبه يوسف مزاجاً · الا ان الغريزة «المباركة» اشد فيه وأخبث · فما كادت عينه تبصر مريم يوم وصوله حتى نهمت نفسه اليها · وجعل يترقب الفرص لقضاء وطره · فراقب حركاتها وسكناتها دون ان يدعها تدري بذلك · واستبشر لما علم انها تنام وحدها · وايوب افندي لا يرى للمقدمات في مثل ذي الاعمال لزوماً · فلم يستوقف مريم مرة · ولا كلمها · ولا نظر اليها الا خفياً · ولا اظهر اعجابه مثل غيره بحسنها وذكائها · فان هي في نظره الا جارية مثل الكثيرات من الجواري اللواتي عرفهن ، لا تستحق الالتفات الا في حالة واحدة

وعاد من المرج مساء ذلك اليوم وهو يفكر بالفتاة ويعلل النفس بقرب الوصول اليها ولم يحفل كثيراً بما رآه في وجوه انسبائه من دلائل الكدر والهم · ولا سأل احداً منهم السبب في ذلك ، ولا ألح على الست هند في اللعب لما رفضت معتذرة ودخلت الى غرفتها تضجع باكراً على غير عادتها · وكان ارتاح الى السكينة في البيت تلك الليلة لانها افضل لقصده واجمل · فنهض عند نصف الليل وهو لا يدري ما حدث ذاك النهار والليلة السابقة ومشى في فناء الدار المظلم ماراً بغرفة عارف فسمع فيها صوت اوراق تمزق فلم يكترث · وسار مسرعاً الى السطح ·

وكانت مريم قد أرقت تلك الليلة من شدة الهواجس والغم فجلست في فراشها تصلي الى العذراء لتوفقها في بلاد الغربة ونور القمر وقد تسرب

الى داخل الغرفة بنير وجهها · فاعتراها وهي تصلي النعاس · ولما وقف ايوب في الباب رآها جالسة مسبحتها بيدها · ورأسها يميد فوق صدرها · ثم استفاقت مذعورة كأنها حلمت حلماً مخيفاً وخيل اليها ان شبحاً واقفاً في الباب فرفعت رأسها وصرخت اذ رأت الغريب صرخة سمعها عارف في غرفته · ونهضت تسارع الى السطح مستغيثة فقبض ايوب عليها واسكتها متوعداً فتشنشت الفتاة في قبضته الشديدة ومادت الى الارض كغصن حصرته الريح · وما هي الا لحظة فلاح هناك خنجر ثلاث مرات كوميض البرق سرعةً ولمعاناً فصاح ايوب · امان ! امان ! وخرَّ من تلك الطعنات صريعاً · فايقظ الصراخ الخادمات في غرفتهنَّ قرب السطح ففتحت لطيفة الشباك فشاهدت عارف يجر شخصاً برجليه من غرفة مريم · ثم وقف بعيداً عنه مبهوتاً مذعوراً · ثم عاد فقبض عليه كالمجنون ورماه تحت السطح · فوقع فوقه صندوق من صناديق الزهور ·

فصاحت لطيفة صيحة اوقفت عارف هنيهة في عمله وراحت ترلول وتلطم خديها ·

— مريم · مريم ! اخرجي من البيت حالاً يجب علينا ان نهرب الليلة هذه الساعة · عجلي ! عجلي ! — روحي قدامي · وانتظريني عند البيادر

واسرع عارف الى غرفته يلبس ثيابه · ولكن الخوف غلب الفتاة وزعزع عزمها · فطفقت تدور في الغرفة كالمجنونة لا تدري ما تصنع

وكانت قد استيقظت اذ ذاك الست هند فجاءت تركض والخادمات

يركضن وراءها . فلما رأت مريم في تلك الحال وشاهدت الدم والخنجر على الارض صاحت وهي تلطم منكبيها . يا بنت الكلب من قتلت ؟ قتلت ابني ؟ يا باطل ! يا باطل ! قتلت عارفاً يا يوسف . قتلت —

فقالت لطيفة تطمئنها — عارف في غرفته يا معلمتي . عارف في غرفته

واخذت بيد سيدها فأرته ما تحت السطح

وكان هناك بعض الجيران وقد أيقظهم الصياح وهم يقولون . مات . مات .

— الخواجا ايوب يا معلمي

فصفق كفاً على كف .

— ومن قتله ؟

فقالت لطيفة — لا اعلم . لا اعلم .

— اخرجي ياهند . اتركي الخنجر مكانه . واتركي البنت . اخرجي .

فخرجت الست هند وهي تقول لمريم التي همت ان تخرج ايضاً — مكانك يا لعينة مكانك .

ثم أقفلت الباب واحتفظت بالمفتاح . وصاحت بالجيران المجتمعين تحت السطح اتركوا الجثة مكانها واخبروا البوليس

اما يوسف افندي فراح يطلب عارفاً في غرفته فلم يجده . فسأل لطيفة عنه فقالت — رأيته يلبس ثيابه لعله عرف بما جرى راح يستدعي الطبيب